

الوسطية والاعتدال ومعالجة التطرف

لفضيلة الشيخ

أ.د. عبد السلام بن محمد الشويعر



الشيخ لم يراجع التفريغ



الوسطية والاعتدال
ومعالجة التطرف

00966558883286

YouTube/alshuwayer9

alshuwayer9

للإعلام بالأخطاء الطِّباعية والاستدراكات والاقتراحات؛ يرجى المراسلة على البريد التالي:

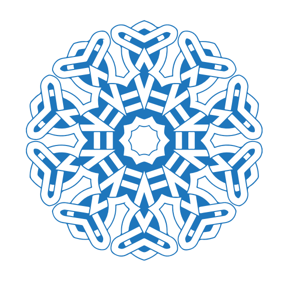
tafreeghalshuwayer@gmail.com

سلسلة المحاضرات واللقاءات العلمية لفضيلة الشيخ



٤٩

الوسطية والاعتدال ومعالجة التطرف



لفضيلة الشيخ الدكتور

عبد السلام بن محمد الشويعر

النسخة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين حمدًا كثيرًا طيِّبًا كما يحب ربُّنا ويرضى، وأشهد أنَّ لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبد الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ سليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

يقول ربنا جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[البقرة: ١٤٣].

❑ **لقد ميَّز الله عَزَّوَجَلَّ أمَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمور متعدِّدة، فممَّا مُيِّزت به أمَّة محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**

۞ أن مُيِّزت بالأحكام التي حسدها عليها الأمم السابقة، فهم محسودون على القرآن الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ لهم، محسودون على يوم الجمعة التي دلُّوا عليها وضيعها الآخرون، محسودون على رمضان، وعلى العيد وعلى غيره.

۞ ميَّز الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمَّة بأن جعل لها جزاء في الآخرة لم يجزه أحد من الأمم قبلنا، **قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «مَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ إِلَّا كَرَجُلٍ اسْتَأْجَرَ ثَلَاثَةَ أُجَرَاء، فَأَمَّا أَحَدُهُمْ وَهُوَ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ فَعَمِلَ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ إِلَى انْتِصَافِهِ، ثُمَّ مَلَّ فَأُعْطُوا دِرْهَمًا دِرْهَمًا، وَأَمَّا الثَّانِي: فَعَمِلَ مِنْ انْتِصَافِ النَّهَارِ إِلَى الْعَصْرِ، ثُمَّ مَلَّ فَأُوتُوا دِرْهَمًا دِرْهَمًا، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَعَمِلُوا مِنْ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ فَأُعْطُوا دِرْهَمَيْنِ دِرْهَمَيْنِ، فَقَالَ الْأَوَّلَانِ: عَمِلْنَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمِلَ الْآخَرِ وَأُوتِينَا مِنَ الْأَجْرِ أَقَلَّ، فَقَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُم شَيْئًا،**

فَقَالُوا: لَا، فَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ».

ولذا فإنَّ أمَّة محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عملها أقل وعمرها أقصـر، ومع ذلك فإنَّ أجرها عند الله عَزَّوَجَلَّ أتم وأكمل، بل هم أكثر من يدخل الجنَّة يوم القيامة، فإنَّ **النبيَّ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَيْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»، وهذا من فضل الله عَزَّوَجَلَّ واختصاصه ومنته وإحسانه بهذه الأمَّة.

۞ وممَّا أنعم الله عَزَّوَجَلَّ به على هذه الأمَّة أن أنعم عليها بنعوت كاملة وصفات لم يوصف بها أحد قبلهم، فممَّا نعتوا أن نعتهم الله في هذه الآية بأن جعلهم أمَّة وسطًا، فهم وسطٌ بين الأمم، ليسوا ضالين ولا مغضوبًا عليهم، وكلُّ مؤمن ومؤمنة إذا صلَّى وصفَّ قدميه لله عَزَّوَجَلَّ **وقال**: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾[الفاتحة: ٦ – ٧]، الذي يُنعَم عليه فلا يكون ضالاً ولا يكون مغضوبًا عليه هم الذين يكونون وسطًا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر في سورة الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

وفي هذه الآية التي معنا لمَّا أمر الله عَزَّوَجَلَّ محمَّداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه بأن يتوجهوا إلى الكعبة، وأن يصلوا إليها بعدما كانوا يصلون إلى بيت المقدس **قال بعض اليهود**: ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها، **كما ذكر في الآية**: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٢ – ١٤٣].

إذن: من هُدِيَ إلى الصراط المستقيم، فترك طريق المغضوب عليهم، وطريق الضالين

معـًا فهو الذي يكون وسط.

ومعنى قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾، **أي**: جعلناكم جعلاً كونيـًا، وجعلناكم جعلاً شـرعيـًا، إذ الجعل والإرادة ونحو ذلك من الأفعال تكون على نوعين إذا نُسِبَت لله جَلَّوَعَلَا:

- **الأول هو**: الجعل الكوني، **أي**: أنَّ الله صيَّركم لهذا الأمر.
- **والنوع الثاني**: جعل شـرعي **أي**: أنَّ من امتثل أمر الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فإنه يكون وسـطـًا كاملاً في ذلك؛ ولذا فإن هذه الأمَّة من باب الجعل الشرعي هي العدل الخيار بين الأمم، ومن باب الجعل الشرعي أنَّ من امتثل أمر الله جَلَّوَعَلَا وكان ملازمـًا للصراط المستقيم وهو كتاب الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وما أمر به النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فهو الذي يكون وسـطـًا بين آحاد الناس وأفرادهم.

ولذلك فإنَّ **قول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾، وصف الناس بوصفٍ **ينقسم على نوعين**:

- فتارةً يكون الوصف يصدق على آحاد الناس وجميعهم.
- وتارةً يصـدق على مجموعهم وغالبهم، وهذه الآية من النوع الثاني لا الأوَّل، إذ الأول يصـدق على جميع الناس **كقول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[الرعد: ١٦]، فالله عَزَّوَجَلَّ خالق لكلِّ شيء وكل شيء يصدق عليه أنه مخلوق، **وقول الله** عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ **أي**: يصـدق على غالب أمتي الاتباع للنبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنهم أمة وسط.

❁ **مسألةٌ**: ثمَّ عندنا مسألة مهمة هنا، وهو أنَّ وصف الله عَزَّوَجَلَّ لهذه الأمَّة بكونها أمَّة وسط ما معنى ذلك؟ وقد جاء عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسيره، فثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد أن النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا قرأ هذه الآية **قال**: «**عُدُولٌ خِيَارٌ**»:

❁ **فالمعنى الأوَّل**: في معنى أنَّ هذه الأمَّة وسطٌ بين الأمَّم أنها أمَّة عدول، فهم عدول في نقلهم، وعدول في حكمهم، وعدول في تصورهم وقولهم وفعلهم، فلا يظلمون أحداً ولا يكذبون في لسان، ولا ينقلون شيئًا ينسبونه لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرصًا وظنًا، وإنَّما هم عدولٌ في نقلهم، عدولٌ في حكمهم، عدولٌ في فعلهم، وهذه من أجلِّ الصفات التي يوصف بها المرء أن يكون عدلاً.

❁ **والمعنى الثاني**: أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن أنَّ معنى الوسط **أي**: أنهم خيار فهم خيار الأمم ولا شكَّ في ذلك.

ولذا فإنَّنا الآخرون زمانًا، الأوَّلون يوم القيامة المقدَّمون، وكلُّ الأنبياء نوحٌ فمن بعده من أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ ورسله هم تحت لواء نبيِّنا وسيِّدنا وإمامنا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذا في الصحيح أنَّ النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ**»، فهو صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيِّد ولد آدم من أنبياءٍ ورسلٍ وسائر الناس هو سيِّدهم، وأمته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم الظاهرون يوم القيامة، وهم أكثر الناس دخولاً للجنَّة في ذلك الموقف العظيم، وذلك دليل خيارهم وأنهم خيار الناس؛ ولذا فإنَّ من أجلِّ الأنبياء بعد نبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عيسى بن مريم، وعيسى بن مريم إذا نزل في آخر الزمان، فإنَّما ينزل متبعًا لنبيِّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاكمًا بشرعه، آخذاً بسنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَسَلَّمَ.

إذن: الوسط هم العدول في نقلهم، وفي حكمهم، وفي فعلهم، الخيار في فعلهم وفي إثابة الله عَزَّوَجَلَّ لهم.

❖ **ومعنىً ثالث** في معنى كون هذه الأمَّة أمَّة وسط، **أي**: أنهم متمسكون بالصراط المستقيم ليسوا بالمغضوب عليهم ولا بالضآلين، فهم وسطٌ بين طرفي الغلو، وكلا طرفي الغلو ذميم، وسطٌ ليسوا بمفرطين ولا بمفرَّطين، وسطٌ ليسوا بتاركين ولا غالين، وإنَّما هم ممتثلون ومتبعون لأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾[الفاتحة: ٦]؛ ولذا جاء عن مجاهد وغيره من السلف أنهم لمَّا ذكروا الصراط المستقيم **قالوا**: هو القرآن، وهو السنَّة، وهو الإسلام، وهو امتثال أمر الله جَلَّوَعَلَا.

إذن: من كان ممتثلاً لأمر الله عَزَّوَجَلَّ فهو الوسط الذي ليس بغالٍ ولا بجافٍ، وقد ثبت أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لمَّا كان في مكة ثمَّ جاء لرمي الجمار قال: «**بِمِثْلِ هَذِهِ فَارْمُوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**»، **وقوله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**»، هذا من باب تقديم المعمول على العامل، وهو من صيغ الحصر الثلاثة حينما يقدَّم المعمول على العامل. **إذن**: احذروا أشدَّ الحذر من الغلو وهذا حق، فإنَّ كلَّ شر في أمَّة محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وكل نقصٍ وكل ضيرٍ في أمَّة محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا فتشت عن سببه ونقرت عن مسببه، فستجده ولا ريب هو الغلو في أحد الأمور التي كانت سبباً للضلال، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾[الفاتحة: ٦ – ٧]. وجاء صالح بن الإمام أحمد لأبيه وقال: يا أبي قول النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**» ما معناه؟ **قال**: «الغلو في كل شيء».

نعم، -أيها الأخوة- لقد حذَّر النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نغلو في كل شـيء، أن نغلو في فعل القلوب، أو أن نغلو في ألفاظ اللسـان، أو أن نغلو في أفعال الجوارح، وكل هذه الأمور فيها غلو، من غلا في اعتقاده فعظَّم شـخصـًا وأنزله فوق منزلته التي أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ إيَّاها فهو غالٍ وهو ضال السبيل، أليست النصارى غلت في عيسى بن مريم وأنزلته منزلةً لم ينزله الله عَزَّ وَجَلَّ لها، فقالوا إنه ثالث ثلاثة وأنه ابن الله عَزَّ وَجَلَّ فقد ضلوا بذلك، ومن شابه من أمَّة محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النصـارى من ضُـلَّال العبَاد فإنه ضـال، ومن شـابه من أمَّة محمَّد صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممَّن أُوتِيَ علمـًا اليهود فهو من المغضـوب عليهم الـذين عرفوا الحق وتركوه، **كما قال عبد الله بن مبارك**: «من شـابه من علمائنا من ضـلَّ من عبَّادنا ففيه شـبه بالنصارى، ومن ضلَّ من علمائنا ففيه شبهٌ باليهود؛ لأنه عرف الحق وتركه».

يقول النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ**»، الغلو في الاعتقاد بتعظيم الأشـخاص، والغلو بأفعال القلوب، فلا نحب أحداً محبةً تنزله أكثر ممَّا أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ إياها، ولا نفرط في كره أحدٍ كذلك، **كما قال عليٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «أحبب حبيبك هونـًا ما، عسـى أن يكون بغيضـك يومـًا ما، وأبغض بغيضـك هونـًا ما، عسـى أن يكون حبيبك يومـًا ما»، إنَّ بعض الناس يغلون في أفعال القلوب، فيعظمون بعضـًا من أصحاب النبيِّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بعضـًا من الصـالحين والعبَّاد فينزلونهم منزلة لا يجوز أن ينزلوا إياها، ينزلونهم منزلة أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ، بل لربما لأنزلوهم مقام الربوبية فلا يسأل إلَّا الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يُستغاث بغيره جَلَّ وَعَلَا، والضد بالضد فمن أنقص أحداً من أهل الفضل قدره وذمَّه وأنزله عن منزلة أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ إياها، فهو حينئذٍ يكون مغضـوبـًا عليه؛ لأنه غلا في أحد الطرفين، وكذلك في أفعال الجوارح، فإنَّ أفعال الجوارح سواء كان ما يتعلَّق بالصلاة أو بالزكاة أو في غيرها من الأمور

والتصورات والأحكام، فإن الغلو فيها مذموم.

ثمَّ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية أنَّ من كان وسطًا، عدلاً، خياراً، غير غالٍ ولا جافٍ، فإنَّ له أثراً عظيمًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ **معنى كون هذه الأمَّة تكون شهيدةً على الناس ثلاثة أمور:**

۞ **الأمر الأول**: أنهم يكونون شهداء على الناس يوم القيامة؛ ولذا فإنَّ نوحًا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأنبياء الله –صلوات الله وسلامه عليهم– بعده كلهم إذا جاء يوم القيامة استشهدوا بأمَّة محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فشهدوا على أنهم بلَّغوا الرسالة، وأنهم أدُّوا الأمانة، وأنَّ النقص إنَّما هو من أتباعهم، وهذا ثبت في الصحيح من حديث أبي سعيد وغيره، فهم شهداء على الناس يوم القيامة، وكان علمهم بتصديقهم الوحي عن الله عَزَّوَجَلَّ، فقد جاء في كتاب الله أنه ما من نبيٍ إلَّا وبلغ أمته وحذرها ونبهها، فهم يخبرون عن صدق، وينبئون عن حقيقة علموها بوحي الله عَزَّوَجَلَّ لنبيِّهم محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

۞ **والمعنى الثاني**: أنَّ هذه الأمَّة يكونون شهداء على الناس **أي**: يكونون بجميعهم شهداء على الناس في الأحكام، وهذه الآية هي التي استدل بها جمعٌ من أهل العلم على أنَّ الإجماع حجةٌ في الأحكام، فإنَّ هذه الأمَّة أمة محمَّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «**لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ**» كما قال النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل الله عَزَّوَجَلَّ ذكر أنَّ من يشاقق الله والرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين يولّه ما تولى، فمتابعة غير سبيل المؤمنين بترك ما أجموا عليه.

۞ **والمعنى الثالث**: في أنهم يكونون شهداء على الناس، أنَّ ما استفاض بين أظهر الناس وعلمه الناس غالبهم، فإنه حينئذٍ يكون حقًا، ثبت في الصحيح من حديث أنس

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ جَالِسًا بَيْنَ أَصْحَابِهِ، فمُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ، فَأَثْنَى النَّاسُ عَلَيْهَا خَيْراً، فَقَالَ: وَجَبَت، ثُمَّ مُرَّ عَلَيْه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجِنَازَةٍ أُخْرَى فَأَثْنَى النَّاسُ عَلَيْهَا شَراً، فَقَالَ: وَجَبَت، قِيلَ: مَا وَجَبَتْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: أَمَّا الْأُولَى فَأَثْنَيْتُم عَلَيْهَا خَيْراً فَوَجَبَتْ لَهَا الْجَنَّةُ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ فَأَثْنَيْتُم عَلَيْهَا شَراً فَوَجَبَتْ لَهَا النَّارُ ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ»، إنَّ من أثنى عليه الناس واستفاض بينهم ذكره بالذكر الحسن، فإنه علامة الخيرية فيه، هذه خيرية عند الله عَزَّ وَجَلَّ في الإثابة ولها أثرٌ في الدنيا، ولذا **قال أهل العلم**: «لا يُؤخذ العلم إلَّا عمَّن عُرِفَ به، واستفاض بين أهل العلم والفضل أنه من أهله»، وقد كان **الإمام مالك** إمام دار الهجرة -رحمة الله عليه- **يقول**: «ما أفتيت حتى شهد لي سبعون معمَّماً أنِّي أهل للفتوى»، **قال ابن ناصر الدين الدمشقي**: «وكان في ذلك الزمان لا يتعمَّم إلَّا من كان عالماً فقيهاً»، فانظر لهذا الرجل الإمام المبجل الذي رفع الله عَزَّ وَجَلَّ ذكره لتعظيمه سنَّة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف عرف هذا الأصل وأنه لا يؤخذ العلم إلَّا من استفاض واشتهر عند الناس مكانته وقدره، فلم يتكلَّم في العلم وامتنع من الجلوس له حتى علم أنَّ أهل العلم قد شَهِدُوا له بذلك.

وفي هذا الزمان -أيها الإخوة- إنَّما بُلِيَ الناسُ بتركهم العمل بهذه الآية، إمَّا بسبب غلو في التصرف، أو بسبب غلو في أشخاص وأخذ العلم عن غير أهله، وما ضلَّ هذه الأمَّة إلَّا بسبب عالمٍ أو مدَّعٍ للعلم ضلَّ عن سبيل الله فأضلَّ الناس، فإنه في آخر الزمان لا يُنتزع العلم انتزاعاً من صدور الناس، وإنَّما يُنتزع بموت العلماء، فإذا مات العلماء اتخذ الناس رؤوساً جهالاً، قال النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»، وثق أنَّ الناس لا يشهدون

لأحد إلَّا بعلم كما قال ابن أبي زيد القيرواني وتبعه أبو الخطاب الكلوذاني وجماعة.

إذن: أثر كون هذه الأمَّة وسطًا في أفعالهم والتزامهم أنهم شهداء على الناس بالمعاني الثلاث التي ذكرت لك قبل قليل.

ثمَّ بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الآية كيف يكون المرء وسطًا وكيف يكون عدلاً خياراً، لا غلوَّ عنده ولا تفريط، **فقال الله جَلَّ وَعَلَا**: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ﴾، إنَّ المرء يبتلي صدقه، ويعرف إيمانه، ويعرف صحة التزامه بقياسها بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وما أمر الله عَزَّوَجَلَّ أمران: أمر أنزله الله في كتابه، وأمر أوحى به لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن نبيِّه**: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ – ٤].

إذن: المؤمن إذا جاءه أمر الله عَزَّوَجَلَّ وصحَّ النقل عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعرف تأويل ذلك النقل وذلك الحديث قال: على العين والرأس، سمعًا وطاعةً لله ورسوله، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝٣٦﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ثمَّ ذكر بعد ذلك الآيات.

فالمقصود: أنَّ المؤمن ليس له خيرة وليس له اختيار في أمره، وإنَّما يجب عليه التسليم ويلزمه الاتباع، وأن يترك هواه وأن ينزل عقله منزلته، وألَّا يجاوز بعقله ذلك الحد، ولذلك ما هلك من هلك إلَّا بسبب تفريطه بفهم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، اسمع هذا الحديث العظيم الغريب عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد ثبت من حديث عقبة أنَّ **النبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال**:

«**هَلَاكُ أُمَّتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ**» **يعني**: القرآن، هل يكون القرآن هلاكًا؟، نعم على لسان النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **قال**: «**يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ وَجْهِهِ فَيَهْلَكُونَ**».

إذن: معرفة كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وكلامه، ومعرفة سنَّة النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس بالتمني ولا بالترجي ولا بالرغبة والهوى، وإنَّما هو بالبذل والتحصيل وطي الركب وإدامة النظر وكثرة الملازمة لكلام أهل العلم، وألَّا يحدث المرء في شرع الله عَزَّ وَجَلَّ وفي دينه ما لم يشرع الله، وإنَّما يكون المرء مسلمًا ملازمًا لشرع الله عَزَّ وَجَلَّ ولكتابه، حريصًا على ألَّا يضرب بهذا الكتاب بعضه، وألَّا يأتي في تأويله بمعنى ليس مقصوداً من دلائل كلام العرب ولا يضربوا بعض كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ببعض.

إذن: **أيها الإخوة هذه الآية العظيمة احتوت ثلاث أمور لمن أراد أن يتأمل فيها:**

- ✓ بيَّنت وصف هذه الأمة وصفًا على سبيل الإجمال لها، ووصف هو بمثابة الأمر وهذا هو معنى الجعل الشرعي بأن يكون المرء وسطًا لا غلو ولا تفريط فيه.
- ✓ ثمَّ بينت بعد ذلك أثر الالتزام بهذا الأمر وهو الوسطية بأن المرء سيكون شهيداً في الدنيا والآخرة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون شهيداً علينا باعتبار الاتباع والامتثال.
- ✓ ثمَّ بيَّن الله عَزَّ وَجَلَّ أنَّ هذا الوصف لا يتصف به المرء إلَّا إذا كان قد غالب هواه وقد ترك رأيه، والتزم أمر الله عَزَّ وَجَلَّ ووحيه، فإنه حينئذٍ هو الذي يصدق عليه أنه يكون وسطًا، **أي**: عدلاً خياراً كما بيَّن النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أسأل الله العظيم ربَّ العرش الكريم أن يرزقنا جميعًا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يتولانا بهداه، وأن يغفر لنا ولوالدينا والمسلمين والمسلمات، وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

